

تفسير ابن كثير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ

وقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) : هذا أدب ثان أدب

الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - [فوق صوته]

. وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما . وقال البخاري :

حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي ، حدثنا نافع بن عمر ، عن ابن أبي مليكة قال : كاد

الخيران أن يهلكا ، أبو بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، رفعاً أصواتهما عند النبي - صلى

الله عليه وسلم - حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي

بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع : لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر :

ما أردت إلا خلافي . قال : ما أردت خلافاً . فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ

بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) الآية ، قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، ولم يذكر ذلك عن أبيه : يعني أبا بكر رضي الله عنه . انفراد به دون مسلم . ثم قال البخاري : حدثنا حسن بن محمد ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، حدثني ابن أبي مليكة : أن عبد الله بن الزبير أخبره : أنه قدم ركب من بني تميم على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلى - أو : إلا - خلافي . فقال عمر : ما أردت خلافا ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزلت في ذلك : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) ، حتى انقضت الآية ، (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم) الآية [الحجرات : 5] . وهكذا رواه هاهنا منفردا به أيضا . وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا حصين بن عمر ، عن مخارق ، عن طارق بن شهاب ، عن أبي بكر الصديق قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) ، قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار . حصين بن عمر هذا - وإن كان ضعيفا - لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف ، وأبي هريرة [رضي الله عنه] بنحو ذلك ،

والله أعلم .وقال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا أزهر بن سعد ، أخبرنا ابن عون ، أنبأني موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه . فأتاه فوجده في بيته منكسا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار . فأتى الرجل النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره أنه قال كذا وكذا ، قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : " اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة " تفرد به البخاري من هذا الوجه .وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إلى : (وأنتم لا تشعرون) ، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حبط عملي ، أنا من أهل النار ، وجلس في أهله حزينا ، ففقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي - صلى الله عليه وسلم -

وأجهر له بالقول حبط عملي ، أنا من أهل النار . فأتوا النبي - صلى الله عليه وسلم -

فأخبروه بما قال ، فقال : " لا بل هو من أهل الجنة " . قال أنس : فكنا نراه يمشي بين

أظهرنا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ،

فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه ، فقال : بئسما تعودون أقرانكم .

فقاتلهم حتى قتل . وقال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا الحسن بن موسى ،

حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية : (

يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إلى آخر الآية ، جلس ثابت في

بيته ، قال : أنا من أهل النار . واحتبس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال النبي -

صلى الله عليه وسلم - لسعد بن معاذ : " يا أبا عمرو ، ما شأن ثابت ؟ أشتكى ؟ " فقال

سعد : إنه لجاري ، وما علمت له بشكوى . قال : فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - فقال ثابت : أنزلت هذه الآية ، ولقد علمتم أنني من أرفعكم صوتا

على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنا من أهل النار . فذكر ذلك سعد للنبي - صلى

الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " بل هو من أهل الجنة "

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمي ، عن حيان بن هلال ، عن سليمان بن المغيرة

، به ، قال : ولم يذكر سعد بن معاذ . وعن قطن بن نسير عن جعفر بن سليمان ، عن

ثابت ، عن أنس بنحوه . وقال : ليس فيه ذكر سعد بن معاذ . حدثنا هريم بن عبد الأعلى

الأسدي ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، سمعت أبي يذكر عن ثابت ، عن أنس قال : لما

نزلت هذه الآية ، واقتصر الحديث ، ولم يذكر سعد بن معاذ ، وزاد : فكنا نراه يمشي بين

أظهرنا رجل من أهل الجنة . فهذه الطرق الثلاث معللة لرواية حماد بن سلمة ، فيما تفرد

به من ذكر سعد بن معاذ . والصحيح : أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ

موجودا ؛ لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل سنة خمس ، وهذه الآية نزلت

في وفد بني تميم ، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة ، والله أعلم . وقال ابن

جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن

شماس ، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، عن أبيه قال :

لما نزلت هذه الآية : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) قال :

قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي ، قال : فمر به عاصم بن عدي من بني العجلان ،
فقال : ما يبكيك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية ، أتخوف أن تكون نزلت في وأنا صيت ،
رفيع الصوت . قال : فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال
: وغلبه البكاء ، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي ابن سلول فقال لها : إذا دخلت
بيت فرسي فشدي علي الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى إذا خرج عطفه ، وقال : لا
أخرج حتى يتوفاني الله عز وجل ، أو يرضى عني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .
قال : وأتى عاصم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره خبره ، فقال : " اذهب
فادعه لي " . فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده ، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس ،
فقال له : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعوك . فقال : اكسر الضبة . قال :
فخرجاً فأتيا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "
ما يبكيك يا ثابت ؟ " . فقال : أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في : (لا
ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) . فقال له رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : " أما ترضى أن تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة ؟ " . فقال :

رضيت بيشرى الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا أرفع صوتي أبدا على صوت

النبي - صلى الله عليه وسلم - . وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ، كما كان يكره

في حياته ؛ لأنه محترم حيا وفي قبره ، صلوات الله وسلامه عليه ، دائما . ثم نهى عن

الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه ، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم

؛ ولهذا قال : (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، كما قال : (لا تجعلوا

دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) [النور : 63] . وقوله : (أن تحبط أعمالكم

وأنتم لا تشعرون) أي : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ،

فيغضب الله لغضبه ، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري ، كما جاء في الصحيح

: " إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يكتب له بها الجنة . وإن

الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين

السموات والأرض " . ثم ندب الله عز وجل ، إلى خفض الصوت عنده ، وحث على

ذلك ، وأرشد إليه ، ورغب فيه ، فقال : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أي : أخلصها لها وجعلها أهلا ومحلا (لهم

مغفرة وأجر عظيم) .وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد : حدثنا عبد الرحمن ،
حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، قال : كتب إلى عمر يا أمير المؤمنين ، رجل
لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها ، أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب
عمر ، رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن
الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) . قال : وأنزل الله : (إن الذين يغضون
أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) .وقد ذكر هذه القصة
غير واحد من التابعين كذلك ، فقد نهى الله عز وجل ، عن رفع الأصوات بحضرة رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [رضي الله
عنه] أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد ارتفعت
أصواتهما ، فجاء ، فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالوا : من أهل
الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا . وقال العلماء : يكره رفع
الصوت عند قبره ، كما كان يكره في حياته ؛ لأنه محترم حيا وفي قبره ، صلوات الله
وسلامه عليه ، دائما . ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه ،

بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ؛ ولهذا قال : (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم

لبعض) ، كما قال : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) [النور : 63

[وقوله : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) أي : إنما نهيناكم عن رفع الصوت

عنده خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله لغضبه ، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو

لا يدري ، كما جاء في الصحيح : " إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها

بالا يكتب له بها الجنة . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي

بها في النار أبعد ما بين السماوات والأرض " .